ملخص محور شعر الغزل في القرن الأول للهجرة

دراسة معمقة في غزلية جميل بن معمر وعمر بن أبي ربيعة (الثانية ثانوي)

مداخل عامّة وتوطئة تاريخية

مدخل 1: شهد المجتمع العربي منذ القرن الأول للهجرة جملة من التحولات السياسية والاجتماعية والفكرية الكبرى. ساهمت هذه التحولات في إيجاد غرض شعريّ جديد نشأ بالحجاز وشكل ظاهرة تختلف عمّا سبقها، ويتمّثل وجه الجدة في أن المرأة التي كانت تمثل في الشعر الجاهليّ عنصرا من عناصر الاستهلال في القصيدة قد تحولت مع جميل بن معمر ومن عاصره إلى موضوع مستقل بذاته وأصبحت تستقطب جميع حركات النص الشعري.

مدخل 2: إن المطّلع على شعر جميل بن معمر سرعان ما يدرك أن الغزل قد كفّ عنده عن كونه مجرد غرض استهلالي وأصبح موضوعا مستقلاً بذاته تمثل فيه الحبيبة مدار القصيدة بأكملها ويستغرق الشاعر من خلالها في تصوير العلاقة بين المحبّين وفي كشف ملامحهما ونفسيتيهما.

مدخل 3: إن الغزل على اختلاف تيّاراته غرض مستحدث في الشعر؛ فإذا كان الشعراء القدامى يتّخذُون من غزل المرأة مدخلا لقصائدهم يمهدون به للغرض الرئيسي مدحا كان أو فخرا، فقد أصبح مع جميل وعمر ومن عاصرهما غرضا مستقلا بذاته وموضوعا رئيسيًا ينطلقون منه وينتهون إليه. ويعود ذلك بالأساس إلى جملة التحولات العميقة التي عرفها المجتمع العربي الإسلامي إثر انفتاحه على الحضارات الأخرى في حواضر الحجاز وبواديه.

أولاً: غزلية جميل بن معمّر (الغزل العذري)

1. صورة العاشقين

أ) صورة المعشوقة (بثينة):

- **الصورة الخلقيّة الجسديّة:** لئن لم يهتمُّ العذريّون بالصورة الخلقيّة قدر اهتمامهم بالصورة الخُلقيّة والنفسية بتأثير البيئة البدويّة المحافظة التي عاشوا فيها، ونخصّ بالذّكر منهم جميل بن معمر (جميل بثينة)؛ فقد رسموا للمحبوبة صورة مثاليّة نموذجيّة تجعل من المعشوقة رمزا مطلقا للحسن وللجمال، وهي صورة جسديّة محتشمة ارتقت إلى مستوى الرّمز الأسطوري فإذا هي أجمل خلق الله:

هِيَ البَدرُ حُسناً وَالنِساءُ كَواكِبٌ ** وَشَتّانَ ما بَينَ الكَواكِبِ وَالبَدرِ
لَقَد فُضِّلَت حُسناً عَلى الناسِ مِثلَما ** عَلى أَلفِ شَهرٍ فُضِّلَت لَيلَةُ القَدرِ

- **الصورة الخُلقيَة النفسية:** تمثّل هذه الصورة مدار الغزليّة العذريّة عند جميل، إذ رسم لنا في جل قصائده جملة الخصال والفضائل التي تحلّت بها المعشوقة، ومنها:
  - امرأة متعففة، محصّنة، وبعيدة كل البعد عن عالم الرجال العابثين، وهي سيدة رفيعة المقام وعزيزة بين أهلها.
  - وفي المقابل، تظهر أحيانا بصورة المرأة اللعوب التي تعد وتخلف، تمنّي بالوصل وتهجر متلاعبة بعواطف المحب، ساعية إلى تأجيج نار عشقه ولوعته.

ملاحظة تركيبية: عندما نقارن بين الصورتين (الخِلقيّة والخُلقية) نلاحظ أنّ المرأة عند جميل جمعت بين بعدين: بُعد واقعيّ وبُعد خيالي أسطوري؛ وهذا التداخل يرتقي بها إلى مستوى الرّمز، ويؤسّس بينها وبين عاشقها علاقة وجدانية غير مألوفة.

ب) صورة العاشق (جميل):

- **الصورة الخِلقية الجسدية:** عتنى جميل ببيان آثار الحب الجارف على جسده، وما يُفضي إليه سهاده وهيامه المتواصل من ألم ومعاناة ينعكسان جسديا على ملامحه، فيبدو نحيلا ذابلا أنهكه الحب وأفناه العشق المرضي.
- **الصورة الخُلقية والنفسية:** من المعاني الثابتة في الغزلية العذرية معنى **الوفاء المطلق** فإذا كانت المعشوقة تعد ولا تفي، فإن العاشق يخلص لها الود ويزداد بها تعلقا، بل يعتبر حبها قضاء وقدرا لا خلاص منه. ويصل حدّ اعتبار الرابطة الجامعة بينهما قائمة قبل الولادة وممتدة إلى ما بعد الحياة برمتها.
- **البكاء والشكوى:** لا يكف العاشق عن البكاء والشكوى وطلب الوصال، بل يصبح هذا الألم المبرح أحيانا مصدرا للمتعة الروحية يستعيض به عن الحرمان من الحبيبة. يعيش العاشق مأساة حقيقية تجعل وجوده رهين وجود محبوبته وبدونها تفقد حياته معناها ومبررها.

2. العلاقة بين العاشق والمعشوق

من المعاني الثابتة في الغزلية العذرية معنى «الشكوى» ويعود ذلك إلى طبيعة العلاقة الجامعة بين المحبين والتي تقوم على ثنائية **الاتصال والانفصال**. بل يمثل فيها الاتصال منشودا بعيد المنال يقابله موجود واقعي وهو حالة البعد والانفصال الناجمين عن عاملين أساسيين:

- **أحدهما ذاتي:** يتصل بالمحبوبة التي تمعن في التلاعب بمشاعر الحبيب، فتعد ولا تفي، وتمني ثم تخلف صدوداً وتمنعاً.
- **وثانيهما موضوعي اجتماعي:** له صلة بالمجتمع وبقيمه المحافظة الصارمة وما يضربه من حصار على هذا الحب الناشئ خارج مؤسسة الزواج، وهذا ما يفسر الحضور المكثف للعذال والوشاة في هذا

النوع من الغزل؛ فجميل لا يشكو هجر الحبيبة فحسب بل يشكو كذلك من الواشين باعتبارهم معرقلين وحائلين دون لقاء المحبين.

رغم هذا الصد يظل جميل وفيا لمحبوبته، ويتخذ وفاؤه طابعا أسطوريا يتجاوز حدود الزمان والموت:

تَعَلَّقَ روحي رُوحَها قَبلَ خَلقِنا ** وَمِن بَعدِ أَن كُنّا نِطافاً وَفي المَهدِ
يَهواكِ ما عِشتُ الفُؤادُ فَإِن أَمُت ** يَتبَع صَدايَ صَداكِ بَينَ الأَقبُرِ

وحب جميل لبثينة مقدر من قبل قوى غير منظورة (قضاء وقدر غيبي):

فَقُلتُ لَهُ فيما قَضى اللَهُ ما تَرى ** عَلَيَّ وَهَل فيما قَضى اللَهُ مِن رَدِّ

حياة العاشق سلسلة عذابات تقف على عتبة المأساة وشفا الجنون، ووجوده مشروط بوجودها:

أَظَلُّ نَهاري مُستَهاماً وَيَلتَقي ** مَعَ اللَيلِ روحي في المَنامِ وَروحُها
فَلا أَنعَمَت بَعدي وَلا عِشتُ بَعدَها ** وَدامَت لَنا الدُنيا إِلى مُلتَقى المَحشَرِ

خَيالُكِ في عَيْنِي وَذِكْرُكِ في فَمِي ** وَمَثْوَاكِ في قَلْبِي فَأَيْنَ تَغِيبِي؟

تتجاوز هذه العلاقة حدود العقل والمنطق، وتوظف **المعجم الديني** ليرتقي بالحب إلى مستوى القداسة والجهاد:

يَقولُونَ جاهِد يا جَمِيلُ بِغَزْوَةٍ ** وَأَيُّ جِهادٍ غَيْرَهُنَّ أُرِيدُ؟

3. البعد الاجتماعي والخصائص الفنية في الغزل العذري

- **البعد الاجتماعي:** كشف شعر جميل عن ملامح المجتمع البدوي في القرن الأول للهجرة، حيث يرفض المجتمع أي علاقة حب علنية خارج إطار الزواج، مما يبرر كثرة الوشاة والحصار الاجتماعي. فجمعت غزلية جميل بين البعد الذاتي والبعد الموضوعي.
- **الخصائص الفنية:** الارتقاء بالمعشوقة إلى مستوى القداسة عبر مزج المعجم الغزلي بالمعجم الديني، مع بساطة البنية اللغوية وصدق العاطفة وحرارتها الشجية.

ثانياً: غزلية عمر بن أبي ربيعة (الغزل الإباحي/الحضري)

1. التحولات الحاضنة لغزل عمر

انتمى عمر بن أبي ربيعة إلى المجتمع الحضري المترهف في مكة والمدينة، على عكس جميل بن معمر البدوي. وقد تأثر شعر عمر بجملة من التحولات:

- انفتاح المجتمع العربي على ثقافات الشعوب الأخرى (الروم والفرس) إثر الفتوحات الإسلامية، مما أدى إلى حياة البذخ والرفاه والرخاء المادي (عائدات الفتوحات).
- تغير العقليات وانخراط المرأة الحضرية في الحياة الاجتماعية واختلاطها بالرجال ممارسةً لنوع من الحرية اللامعهودة.
- انعكس ذلك في غزلية عمر في مستوى المضامين (انقلاب صورة العاشق والمعشوق) وفي مستوى أساليب النظم (المعاجم السهلة، البحور الخفيفة والغنائية).

2. العلاقة بين العاشق والمعشوق وانقلاب الأدوار

إذا كان الغزل الموروث يجعل من المرأة متمنعة متدللة والشاعر باكياً شاكياً وفياً، فإن غزلية عمر شهدت **انقلاباً جذرياً وتبادلاً للأدوار**؛ حيث تحول الشاعر إلى قِبلة للنساء يعشقنه ويطلبنه، واصطبغ الغزل بالفخر الذاتي، فإذا "أنا" الشاعر هي المحور وجاء الثناء عليه على لسان النساء أنفسهن:

> **قالَتِ الكُبرى أَتَعرِفنَ الفَتى ** قالَتِ الوُسطى نَعَم هَذا عُمَر**
>
> **قالَتِ الصُغرى وَقَد تَيَّمتُها ** قَد عَرَفناهُ وَهَل يَخفى القَمَر؟**

ومن صفات الشاعر هنا أنه عاشق دون خوان لا يستقر على حال، ينتقل من امرأة إلى أخرى مسكوناً بهاجس اللذة والتنقل. والمرأة عنده حضرية مترفة تتحدث للرجال وتثور على القيود.

3. الخصائص الفنية والبنية القصصية عند عمر

- **النزوع إلى السهولة:** ترك الإعجام والتعقيد اللفظي والميل إلى عبارات يسيرة واضحة تناسب حياة الترف.
- **البحور الخفيفة:** اعتماد البحور القصيرة الراقصة (كالخفيف والرمل والمجتث) التي تتسم بغنائية عالية صالحة للغناء الذي شاع بالحجاز.
- **البنية القصصية (المغامرة العاطفية):** تتحول التجربة الغرامية عند عمر إلى قصة أو مغامرة عاطفية تتوفر على مقومات القص الثلاثية:
  - **وضع الانطلاق:** يمثل حالة النقص الناتجة عن غياب الحبيبة الشديد (يهذي بخود مريضة النظر).
  - **سياق التحول (الحدث القادح):** ظهور المحبوبة فجأة مما يدفع الشاعر لخوض مغامرة يتحدى فيها المخاطر بمساعدة رفاق أو شقيقات المحبوبة.

- **وضع الختام (سد النقص):** تحقيق الوصال والظفر باللذة المنشودة:

فَبِتُّ قَرِيرَ العَينِ أُعطِيتُ حَاجَتِي ** أُقَبِّلُ فَاهَا فِي الخَلَاءِ فَأُكْثِرُ

4. عناصر الحكاية في شعر عمر

- **المكان:** يتراوح بين المكان الطبيعي الفاتن (**إِذ تَمشِينَ بِجَوٍّ مُونِقٍ...**) وبين **المكان المقدس** حيث تجري المغامرات في مكة أثناء موسم الحج:

فَأَبصَرتُها لَيلَةً وَنِسوَتَها ** يَمشينَ بَينَ المَقامِ وَالحَجَرِ

- **الزمان:** تنطلق الأحداث غالباً تحت ستر الليل وغياب الرقيب، وتنتهي مع تباشير الصباح والارتحال.
- **الشخصيات والحوار:** الشاعر بطل، الحبيبة بغية، وهناك شخوص مساعدة (الأختان والصواحب) وشخوص معرقلة (الوشاة والرقباء). ووظف عمر الحوار الحي لكشف مواقف النساء بين الغنج والتمنع وبوح الحب.

ثالثاً: مظاهر التقليد والتجديد ومظاهر الإباحية عند عمر

أ) مظاهر التقليد في غزلية عمر:

- **في مستوى الشكل:** الالتزام بعمود الشعر والوقفة الطللية والبكاء على الديار في بعض القصائد، ونظمها على البحور الخليلية، والتكثيف الإيقاعي بالتصريع في مطلع القصيدة، واستعمال معجم بدوي أحياناً.
- **في مستوى المضمون:** محاكاة الصورة النمطية للعاشق المتيم أحياناً، وشكوى الوشاة والعذال الموروثة عن القدامى.

ب) مظاهر التجديد في غزلية عمر:

- قلب الأدوار جعل العاشق معشوقاً ومطلوباً تتهافت عليه الحسان.
- امتزاج الغزل بالفخر والحماسة، واعتماد البنية القصصية المتكاملة (السرد والوصف والحوار).

ج) مظاهر الإباحية والنزعة الحسية:

تتميز غزلية عمر بنزعتها الإباحية في الوصف عبر استخدام **المعجم الحسي الجسدي** (تفضيل ملامح الجسد، الثغر، الجيد، الأعين الحور)، وتوظيف الحواس الخمس في تحسس الجمال والتمتع به:

غادَةٌ يَفتَرُّ عَن أَشنَبِها ** حينَ تَجلوهُ أَقاحٍ أَو بَرَد
وَلَها عَينانِ في طَرفَيهِما ** حَوَرٌ مِنهُ وَفي الجيدِ غَيَد

ومن خلال هذا التوجه بدت المرأة في عالم عمر جريئة باوحة بعواطفها تتوق للوصال، وصار الرجل معشوقاً مطارداً من قِبل العاشقات المترفات.

خاتمة ومقارنة تأليفية

يمثل القرن الأول للهجرة محطة مفصلية استقل فيها الغزل كغرض قائم بذاته. وبينما حافظ **جميل بن معمر** في فلك الغزل العذري البدوي مقدساً الحب ومرتقياً به إلى قيم الوفاء المطلق والأبدية الروحية والمعاناة المأساوية، اتجه **عمر بن أبي ربيعة** نحو الغزل الحضري الإباحي محولاً القصيدة إلى مغامرة قصصية واقعية، قالباً للأدوار التقليدية ومحتفياً باللذة والجسد، مما يعكس بوضوح أثر البيئة والتحولات الاجتماعية والسياسية في توجيه الإبداع الشعري وتطوير أدواته الفنية.